الموقع الاستراتيجي لـ"منطقة الحضنة" في التاريخ القديم

أ.د. العقون أم الخير*

1- خصائص إقليم الحضنة الجغرافية:

يتمركز حوض الحضنة حول إقليم تقلّ نسبة ارتفاع سطحه عن أربعمائة متر بالنسبة لمستوى البحر، وهو يتميّز بخصائص جغرافية، تضاريسية ومناخية فريدة من نوعها.

فمن حيث التضاريس، تحيط بحوض الحضنة من جهة الشمال مرتفعات جبلية مكوّنة شبه قوس يفصل بين التل والأطراف الشمالية للصحراء. وتتشكّل هذه المرتفعات من جبال بلزمة، توغة والمعاضيد التي يتراوح علوها ما بين 1400و1800 مترا. ثمّ تواصل هذه المرتفعات في الامتداد شرقا وجنوبا - وإن كانت أقل ارتفاعا وتلاحما - مكوّنة جبال متليلي وجبال أولاد نايل التي تفصل بين منطقتي الحضنة والزيبان، وبالتالي لا تجد منطقة الحضنة متنفسا سوى من الجهة الغربية، حيث تمتد الهضاب العليا، فاتحة ممرّا فسيحا للتأثيرات.

ولقد انعكست هذه التضاريس على نوعية المناخ السائد في حوض الحضنة، فالمسافة الطولية (حوالي 100 كم vol d'oiseau à) التي تفصل الحضنة عن سطح البحر ليس لها مفعول على مناخ الحضنة لأن المرتفعات المحيطة بها من جهة الشمال تقف حاجزا يمنع تسلل رطوبة البحر إلى هذا الإقليم. وعلى العكس من ذلك فإن حوض الحضنة يتعرّض إلى تأثير الهضاب العليا غربا، والصحراء جنوبا، لانفتاحه عليهما، وهي سمة تميّز مناخ الحضنة بالحرارة والجفاف، وقلّة

* - أستاذة بقسم التاريخ / جامعة وهران.

تساقط الأمطار الذي ينعكس على الغطاء النباتي الفقير كلّما تدرّجنا جنوبا.

وعلى أساس ذلك فإن إقليم الحضنة يتميّز بطابع صحراوي أكثر منه تلّي، غير أنّه ولحسن حظ المنطقة أنّها ذات صرف داخلي، فهي تتوفّر على مخزون هام من المياه الجوفية التي تغذيها الأمطار المنحدرة من المرتفعات الشمالية، وتصبّ نحو السفوح الجنوبية، عبر أودية مثل واد القصب، الذي يمرّ بمدينة المسيلة، وواد القنطرة، وواد بريكة. الأمر الذي أعطى الإقليم حيوية زراعية قام عليها استقرار بشري منذ عهود مبكّرة.[1]

وبالتالي فإن خاصية التضاريس القاسية نوعا ما، لم تحرم الحضنة من مصدر للمياه، بحيث تحوّل حوض الحضنة، ومنذ العصور القديمة إلى حوض داخلي تتجمّع فيه مياه السفوح الشمالية للأطلس الصحراوي والمياه الجنوبية للأطلس التلّي.

كما نلاحظ من جهة أخرى، أن سلسلة الجبال المحيطة بإقليم الحضنة، لم تقف عائقا أمام التنقّلات البشرية، ولم تعزله عن الجوار الجغرافي. فقد تخلّل تلك المرتفعات بعض المسالك والأودية، والفجوات اتّخذها سكان المنطقة سبلا للاتصال، وبالتالي الربط بين الحضنة وإقليم التل شمالا.

ويفيدنا علماء ما قبل التاريخ أن إقليم الحضنة كان ذا حيوية خاصّة منذ عهود موغلة في القدم، ترجع إلى العصور الحجرية، فقد ترك إنسان المشتى العربي صانع الحضارة الوهرانية (الايبرو-مغربية) حوالي

---

[1]- J..Despois, La bordure Saharienne de l'Algérie orientale.in revue Africaine N 86 , Alger : OPU, 1942. P. 95, P.P. 199-200.

الألف الحادية عشر قبل الميلاد ـ آثار نشاطه عند موقع الهامل (بوسعادة)، كما ترك الإنسان القفصي فيما بعد -حوالي الألف الثامنة قبل الميلاد- أدوات من الصّوان المشظّاة بجوار ركام الحلزونيات بالموقع المعروف رحاه فريرو "**Moulin Ferréro** " (بوسعادة)، وموقع عين خرمام وبنزوه [1]، اللذين لا يبعدان عن الموقع الأول إلا ببضعة كيلومترات.

وقد تواصل نشاط الإنسان في المنطقة لغاية العصر الحجري الحديث، إذ عثر الأثريون على بقايا مواقد وأدوات على سفح جبل الطارف، جنوب غرب مدينة المسيلة باتّجاه سيدي عيسى.[2] وبالتالي فقد ساهم المظهر التضاريسي إلى جانب عوامل المناخ في تحديد خصوصية إقليم الحضنة، وجعله منطقة حيوية فاصلة وواصلة في آن واحد، بين إقليمين مختلفين هما: التل والصحراء. ولقد تنّبه السكان الأصليون لهذه المعطيات في وقت مبكّر، كما جذبت انتباه المستعمرين الرومان فيما بعد.

وتدلّ تحرّيات الأثريين بأنّ السكان، وقبل الاحتلال الروماني لبلاد المغرب، قد استغلّوا العوامل التضاريسية والمناخية لإقليم الحضنة، فاستفادوا من فجوات الجبال للاتصال، كما استغلّوا الثروة المائية المتوّفرة باستخدام تقنيات بسيطة لزراعة الأرض، والاستقرار في قرى غير بعيدة عن مزارهم وحقولهم.

---

[1] -L.Balout , Préhistoire de l'Afrique du nord , Paris :art et métiers graphiques, 1955, P.P. : 346 -347.

[2]- R.Vaufrey, Préhistoire de l'Afrique. Tome 1, Le Maghreb. Paris : Libraire Masson et Cle, 1955, P.P. ; 231-235

وعليه يمكن القول، أنّه لم يكن للرومان فضل في اكتشاف حيوية المنطقة، وإنما استغلّوا هذا المعطى لتكريس هيمنتهم على الشريط الحيوي الفاصل بين التل والصحراء مناخيا – كما سبق ذكره- وأيضا اقتصاديا، لكونه نقطة التقاء تجاري بين سكان الصحراء الذين تتوفّر لديهم سلع ثمينة مثل ريش النعام وتبر الذهب والعاج، وبين المناطق التلّية الخاضعة للاستعمار الروماني. فتصدّر للجنوب البضائع الرومانية، وتلك المستوردة من بلاد الاغريق والشرق...

- الاحتلال الروماني لإقليم الحضنة:

لقد وقعت الأجزاء الشمالية لمنطقة الهضاب تحت رقابة الإدارة الرومانية في عهد الأباطرة الأنطونيين* في القرن الثاني الميلادي، الذين لم يغفلوا عن تحصين جنوب مقاطعة نوميديا حيث يتداخل الليمس النوميدي بالموريطاني عند منطقة الحضنة. ثمّ توغل الخط الدفاعي الثاني (**Limes**)، إلى أبعد المواقع جنوبا في عهد الأباطرة السيفريين* في القرن الثالث الميلادي، بحجّة ردع بدو الصحراء واعتداءاتهم المتكرّرة على المزارع، وكذلك من أجل مراقبة طرق التجارة. غير أنّ الهدف الحقيقي لهذا الانتشار والتوسّع جنوبا – والذي لم تعلن عنه روما – وإنما تبيّنه الخريطة الرومانية في شمال إفريقيا، وهي خريطة حيوية شملت كل المناطق ذات النفع الاقتصادي. فأمام تزايد حاجة الرومان لأراضي بلاد المغرب القديم المعروفة بخصوبتها ومردوديتها،

* - الأباطرة الأنطونيين :أباطرة رومان حكموا فيما بين 96 – 192ميلادية.

* - الأباطرة السيفريون :أباطرة رومان من أصل مغربي حكموا فيما بين 193–235م.

قصد استثمارها، طبّقوا سياسة إبعاد الفلاحين من أراضيهم الخصبة عُنوة نحو أخرى أقلّ مردودية. الأمر الذي طبع حياة السكان المبعدين الذين تحوّلوا إلى رعاة شبه رحل، وزاد في نقمتهم وسخطهم على السلطات الرومانية؛ وكذلك على المُلاّك الجدد للأراضي، مما جعلهم يغيرن على المزارع، ويقومون بأعمال عسكرية أضرّت بالمؤسسات الرومانية.[1]

وبحجّة ردع هؤلاء الرعاة الذين تحالفوا مع البدو، مدّت السلطات الرومانية حدودها نحو الجنوب، فعاقبت المتمردين، وأبعدت القبائل جنوبا لتستولي على أراضيها الخصبة لإعطائها للجند المتقاعدين المسرحّين من جنود كتيبة أغسطس الثالثة والفصائل، وأيضا للوافدين الإيطاليين والإسبان، فأقاموا مستوطنات زراعية لجأ الرومان فيها إلى بناء القلاع والحصون حواليها لحمايتها من مقاومة الجهاد الذي خاضه السكان من أجل استرداد أراضيهم.

ومن هذا المنطلق، يمكننا القول بأن منطقة الحضنة أثناء الاحتلال الروماني تحوّلت إلى إقليم عسكري يندر فيه النشاط المدني.

وتجدر الإشارة هنا إلى انعدام الدلائل التاريخية الصريحة حول الموضوع – إبعاد القبائل والاستيلاء على أراضيهم – ما عدا ما يمكننا استنباطه من خلال المقاومات المتتالية في وجه الرومان.

والحقيقة أن شروع السلطات الرومانية في احتلال أراضي القبائل يرجع إلى عهد الإمبراطور أوكتافيوس أوغسطوس (27 ق.م – 14 م) حيث منح يوبا الثاني أراضي كانت تابعة لقبائل الجيتول المتواجدة

[1]- M.Benabou , La résistance africaine à la romanisation. Paris : Maspero, 1976, P. 211.

بين شمال شرق الحضنة وشمال وادي جدي **Nigris Flumen**، واستمرت العملية بعد ذلك في عهد خليفته تيبيريوس**iberius** (14 م -37م)، [1] ثم أخذ هذا المنحى في التصاعد والتزايد بعد ذلك..

لقد احتفظت لنا النقوش اللاتينية ببعض أخبار المعارك التي شارك فيها سكان إقليم الحضنة. فهذا الإقليم من حيث التقسيم الإداري كان يقع على الحدود الغربية لنوميديا، وأقصى شرق موريطانيا القيصرية، ولذلك فقد تجاورت بالحضنة قبائل المور (سكان جبال الحضنة)، والجيتول (البدو الرّحل بجنوب الحضنة).

وعلى هذا الأساس، شاركت منطقة الحضنة في ثورة تكفاريناس الذي اشترط على الإمبراطور تيبريوس إعادة الأرض التي احتلها جيشه لأهلها مقابل وقف القتال.

ولم يتوقف تمرد هذه القبائل من أجل استرجاع أراضيها إلى غاية منتصف القرن الثاني الميلادي، لمّا شاركت منطقة الحضنة في ثورة المور **Maure** التي اندلعت عام 145 م، ودامت لغاية 150 م. واستدعى أمر القضاء عليها إحضار فرق مساعدة من كلّ الجهات نظرا لخطورتها، وإن كانت المصادر الدينية والمادية لا تذكر القبائل التي تسببت في انتشارها. لكن الإجراءات الأمنية التي اتّخذتها السلطات الرومانية آنذاك تبيّن بجلاء المساهمة المكثفة لسكان إقليم الحضنة في هذه الثورة. ومن هذه الإجراءات إنشاء حصن فيما بين سنتي148 و149م بالناحية الشرقية للزحرز الشرقي الذي يبعد 50 كم غرب

---

[1]- م.ب. شنيتي، التغيّرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، الجزائر: المؤسّسة الوطنية للكتاب،1984، ص 52.

بوسعادة. وكان الهدف من وراء ذلك هو مراقبة الطرق والقوافل القادمة من الجنوب، والتي تتجه نحو بوغار بالشمال الغربي، ثمّ سيدي عيسى لتصل إلى الحضنة. كما أنشىء حصن امجدل في نفس السنة بالناحية الغربية، وكانت مهمّته حراسة الممر الهام بين شط الحضنة والزحرز الشرقي.[1]

أمّا في القرن الثالث الميلادي، فقد شارك سكان الحضنة في ثورة قادتها قبائل البوار الشرقيين**Bavares** على مدينة أوزيا Auzia(سور الغزلان) عام 289 م. لكن أقوى هذه الثورات جميعا هي ثورة قبائل الحلف الخماسي **Quinque gentin** عام 292 م، التي هدّدت السهول العليا لموريطانيا.

وممّا زاد في خطورة الوضع تدخّل قبائل أخرى تتمركز بالشط الشرقي وسط الحضنة يُحتمل أنّها من القبائل الرّحل بالإضافة إلى سكان الجبال.[2] ويفترض (قيام) تحالف بين هذه القبائل المنتشرة شمال الصحراء وقبائل التل (سكان الجبال)،فاستدعى الأمر القضاء على هذه الثورة، إحضار فرق مساعدة غالية وجرمانية. بل إن هذا الأمر أضطر الإمبراطور ماكسيميليانوس **Maximilanius** للتدخّل شخصيا والقضاء عليها.[3]

وتذكر النصوص فيما بعد أن قبيلة الموزون **Musones**، وهي من قبائل الحضنة، قد شاركت في ثورة فرموس **Virmus**– أمير قبيلة

---

[1]- Baradez , Fossatûm africae , Alger , 1949, P129

[2]- M.Benabou , Op.cit. P.P. : 234 - 235

[3]- M. Benabou , Ibid. P. 237

اليوياليني **Jubaleni**– التي كانت تقطن بجبال البيبان شرق مدينة سور الغزلان فيما بين 372 و375 م.

ومما يجدر التنبيه له هو أن كلّ هذه الثورات التي شارك فيها سكان الحضنة كانت بسبب واضح هو السبب الاقتصادي المتمثل في القتال من أجل استرجاع الأراضي المسلوبة، لكنّها كانت تهدف أيضا إلى التخلّص من السيطرة الرومانية، إذ تواصلت مقاومة سكان الحضنة للتخلّص من الهيمنة الأجنبية رومانية كانت أو وندالية لعقود طويلة فيما بعد.

ولقد استغلت قبائل الحضنة فترة الفوضى والاضطراب الذي حلّ بالإمبراطورية الرومانية، إثر وفاة الامبراطور "فالنتين Valentin"الثالث، فأعلن زعيم قبائل المور المدعو ماستياس **Mastias** نفسه امبراطورا سنة 455 م.

وتحدّثنا المصادر فيما بعد بأن دخول الوندال إلى شمال افريقيا قد خلّف الكثير من الاضطراب والخراب مما سمح بظهور الكثير من الممالك المستقلة، كانت إحداها مملكة الحضنة.

وأهمّ هذه المصادر نقيشة اكتشفت بضواحي أريس بجبال الأوراس سنة 1942، ترجع لصاحبها المدعو ماستياس، وكان ماستيناس هذا ملكا على إحدى القبائل المورية القوية المقيمة على حدود ليمس الحضنة. لذلك نال لقب دوقDux سنة 429 م من الحاكم الروماني على شمال افريقيا بونيفاكوس Bonifacus، عشية الغزو الوندالي، حيث كان بحاجة إلى شخصية محلّية قوّية تراقب الليمس والمحافظة على مصالح الرومان في إقليم الحضنة ذي الأهمية الاستراتيجية، لتحكّمه في الطرق المؤدية للسهول العليا الشرقية

بموريطانيا السطيفية* ونوميديا. وأمام تطاحن القادة الرومان الضعفاء، أعلن ماستيناس نفسه امبراطورا لمدة اختلف المحققون في الوثائق التاريخية حول مدّتها (بين 20 و40 سنة)، فتخلص من عبء التبعية لروما، وخاض العديد من الحروب ضدّ ما تبقّى من سيطرة وهيمنة رومانية في المدن التي أخضعها له، مثل مدينة زابي. وامتدت بذلك حدود مملكة الحضنة من واد الشلف غربا إلى جبال الأوراس شرقا، تحدّها سهول سطيف شمالا إلى الأطراف الشمالية للصحراء.

ولقد اختفت هذه المملكة في عهد ملكها أورتايوس Ortauis ملك قبائل **Musini** سنة540 م تحت ضربات البيزنطيين الذين حرصوا على الحفاظ على منطقة الحضنة رغم تفريطهم في باقي المناطق الجنوبية.[1]

3- العمران بالمنطقة :

لقد تفطّن الرّومان لأهمية إقليم الحضنة نظرا للموقع الاستراتيجي الهام الذي يتربع عليه من الناحيتين العسكرية (ألأمنية) والاقتصادية (الزراعة والتجارة). لذلك عرف هذا الإقليم أوج تطوّره من ناحية العمران أثناء الاحتلال الروماني، ولو ألقينا نظرة خاطفة على خارطة التمركز العمراني في بلاد الحضنة الرومانية لأمكننا التميز بين صنفين من العمران: أحدهما عسكري، والثاني مدني، تمثّل النوع الأول في المعسكرات والقلاع والحصون المزوّدة بالأبراج.

---

* - في أواخر القرن الثالث الميلادي أعاد الإمبراطور دقليانوس تقسيم مقاطعة موريطانيا القيصرية إلى مقاطعتين :السطايفية شرقا والقيصرية غربا

[1]- Ch. Courtois , les vandales et l'Afrique. Paris : 1955, P. 334 & P.P : 337- 338.

ولقد شُيّد هذا النوع من العمران من أجل حماية وتوفير الأمان للعمران المدني (القرى والمدن) من هجمات السكان المحليين المبعدين عن أراضيهم، وأيضا من أجل حماية شبكة الطرقات التي أقيمت بين المدن للحفاظ على المصالح الاقتصادية أي حماية القوافل التجارية، وردع اعتداءات البدو الرّحل المتكرّرة عليها.

أ- العمران المدني :

تمثّل هذا النوع من العمران في مدن وقرى محصّنة، أقامتها السلطات الرومانية في أماكن استراتيجية مثل السهول، والمنخفضات المؤدية للتلال. إلا أن الشرط الأساسي لإقامة مثل هذه المراكز كان الماء قبل كل شيء، ولذلك نمت الحياة في مدن قديمة نوميدية استعادت نشاطها مجددا أثناء الاحتلال الروماني، وأخرى جديدة نشأت مع تغلغل الاستعمار والاستيطان الروماني ابتداء من القرن الثالث الميلادي.

وكانت تركيبة السكان في هذه المدن مكوّنة من الجند المسرحين من جيش كتيبة أوغسطس الثالثة، بعد أن تحوّل أعضاؤها إلى فلاحين مستعدّين للدفاع عن أملاكهم باستخدام السلاح. بالإضافة إلى الوافدين من الايطاليين والغاليين، وبعض الأهالي (من السكان الأصليين) للعمل في الأراضي الزراعية التابعة للمعمّرين..

وممّا يُلاحظ في هذا الشأن هو أنّ شمال شط الحضنة كان أكثر ملاءمة للزراعة بسبب وفرة المياه والتربة الخصبة المتجدّدة بفعل السيول التي تجلبها الأودية. لذلك انتشرت المدن والقرى المحصّنة بأعداد لا بأس بها شمال السبخة من الشرق إلى الشمال وشمال - غرب.

في حين قلّت المراكز العمرانية المدنية جنوب السبخة وواد اللحم، وعلى سفوح جبال الزيبان، وجبال أولاد نايل لعدم مردودية الأراضي. وتتمثل آثار الاستقرار هناك في بعض المقابر البربرية المحلّية المعروفة باسم بزينة Bazzina، وبقايا قرى بسيطة أخرى ببوسعادة وجبل بوكحيل.[1]

أما شمال السبخة، فإن المراكز العمرانية قد أخذت في انتشارها وتوزيعها شكل قوس يتماشى بالتوازي مع القوس الذي تشكّله المرتفعات الجبلية. وقد كانت هذه المدن متفاوتة من حيث الأهمية وسعة الاستيعاب – وأهمها مدينتي طبنة وزابي اللّتين سوف نخصّهما بشيء من التفصيل – وتتوزع المراكز من الشرق إلى الغرب كالآتي:

- القنطرة Ad Calceus:

وتقع على طرف الزيبان أي أقصى شرق الحضنة، وكانت تسيطر على الطريق الرابط بين باتنة ولامبيز (مقر كتيبة أوغسطس الثالثة)، وقامت هذه المدينة على واد قنطرة.

ثم تليها مدينة طبنة **فمدينة تقاوس**، التي كانت مقر قبيلة كبيرة ذات بأس **قبيلة** Nicivibus، وقد كانت هذه المدينة جزءا من مقاطعة نوميديا كما ورد في النقيشة اللاتينية رقم 4469.[2]

ولقد تطوّرت هذه المدينة في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي، وحافظت على مكانتها لغاية الفتوحات الإسلامية، فذكرها المؤرخ العربي اليعقوبي لخصوبة أراضيها، وكثرة أشجارها. ثم تليها

---

[1]- Jean Despois, le Hodna , Paris : presses universitaires de France, 1953 , p. 106.

[2] -G. Wilmans , Corpus, Inscriptioum Lalinarum. (CIL) , vol VIII , Berlin : 1881 – 1959.

مدينة **الخربة الزرقاء** التي عُرفت في القديم باسم **Cellas**، وكانت تتربع على موقع هام يتوسّط منخفض نقاوس وجريات واستفادت من مياه عين شرشار، وهي مدينة متوسّطة الشأن والحجم، حيث غطّت أطلالها حوالي 15 هكتار فقط.

وتأتي بعد ذلك **مدينة مقرة** Macri، التي تقع على واد مقرة، وقد أشار إليها ستيفان غزال في أطلس الجزائر الأثري تحت رقم 26/111[1]، وتبعد عن مدينة الحزبة الزرقاء بحوالي 36 كم، بينما تفصلها عن مدينة بشيلقا مسافة 46 كم. وتعود في تاريخ نشأتها إلى القرن الثاني الميلادي، إذ وجد بها نصب إهداء إلى الأمير كراكلا باالامبراطور سيتيموس سفيروس مؤرّخة بعام 197 م. وتدلّ بقايا قنوات الري بها إلى خصوبة أراضيها، ولم يخفت صيتها إلى غاية الفتوحات الإسلامية، حيث ذكرها الكتّاب والجغرافيون العرب من أمثال ابن حوقل واليعقوبي والإدريسي..

وبعد مدينة مقرة تأتي **مدينة بشيلقا** (Zabi)، ثمّ **مدينة ترمونت** (**Aras**)- وقد تمّ إنجازهما خلال القرن الثالث الميلادي- وهي مدينة عسكرية تشبه في تصميمها المعسكر، إذ هي في الأصل مركز عسكري يتكوّن من عشرة حصون وأربعة أبراج، يبدو أن الغرض من هذا الإنجاز هو مراقبة جبال ونوغة. وكان يقوم بدور الحاجز المانع لتسرب الرّحل من شط الحضنة والانتقال إلى جبال الحضنة. غير أن الهدف الأساسي من وراء ذلك كان القضاء على أية محاولة للاتحاد

[1]-St. Gzell, Atlas Archéologique de l'Algérie (AAA) 2 ° volume, cartes et textes, 1912.

بين رحّل الحضنة وجبال البيبان وجبال البابور التي كانت تقطن بهما قبائل متمرّدة على السلطة الرومانية.[1]

ومن أهدافه أيضا: الهيمنة على المسالك المؤدّية إلى ساحل الصومام. وبهذه المدينة، ينتهي الحزام العمراني المحيط، بحوض الحضنة من ناحية الشمال، وتبقى مدينتا طبنة وبشيلقا أهمها جميعا.

– طبنة Thubunae:

نظرا لأهمية هذه المدينة في الاقليم، نجد أن اسمها قد أطلق على الشط، شط الحضنة فورد اسمها في النصوص اللاتينية باسم **Salina Thubonenses**. وقد ورد ذكر هذه المدينة في أطلس الجزائر الأثري تحت رقم 37/10، ولا يستبعد أن تكون طبنة الإسلامية قد بُنيت على أنقاض المدينة الرومانية، التي قامت بدورها على أنقاض مدينة نوميدية أو بالقرب منها.[2]

ولقد ورد ذكر مدينة طبنة أيضا في مجمع النقوش اللاتينية المجلد الثامن تحت رقم**535 22** وموقع مدينة طبنة كما تدلّ عليه أطلالها عند جبل السفار، بين واد بيطام جنوبا، وواد بريكة شمالا، على هضبة يبلغ علوّها حوالي 469 متر، فتشرف على السبخة..

وتغطّي أطلال طبنة حوالي 50 هكتار، وكانت تحيط بها أحياء شعبية، يسكنها الأهالي المور..

أما من حيث النشأة، فإننا لا نتوفر على المعطيات الأثرية اليقينية التي تساعدنا على تحديد الزمن الذي نشأت فيه هذه المدينة، لكن

---

[1]-Baradez , Op.cit , P.297.

[2]- St.Gzell,AAA 37/10

أقدم الوثائق ترجعها إلى عهد الإمبراطور تراجان أي خلال القرن الثاني الميلادي.[1]

ثمّ ترقّت طبنة إلى مصاف بلدة رومانية أثناء حكم الأباطرة السيفيريين (193–235م) وأخذت شهرة المدينة في البروز، بدليل كثرة النقوش العائدة إلى ذلك العهد.

ويتلخّص محتواها في عبارات التقدير والامتنان لأولئك الأباطرة، وقد جعلت منها تلك الشهرة موطنا مفضّلا لمجتمع مدني مكوّن من تجار وحرفيين ورجال فكر ودين، قاموا بنشر المسيحية بها في وقت مبكّر، أي في حوالي 256 م. أو قبله.[2] إلا أننا لا نستطع الجزم في موضوع تعداد سكانها آنذاك، غير أن سعة السدود والخزانات التي كانت منجزة بأراضيها، تجعلنا نفترض أنها كانت كافية لتموين بضعة آلاف من السكان،[3] معظمهم من الجند الرّومان المسرَّحين من الجيش، وخاصّة بعد أن أُغلقت قلعة مسعد بعد حلّ كتيبة أغسطس الثالثة، فتراجع الخط الدفاعي الثاني شمالا حيث توجد مدينة طبنة.

ولعلّ إقامة حاكم إفريقيا الروماني "الكونت بونيفاس" بمدينة طبنة عام 427م - عندما كان الوضع السياسي والعسكري بشمال إفريقيا مهيّأ لدخول الوندال - دليل على الأهمية العسكرية التي تتميّز بها هذه المدينة. ثمّ تكرّست عراقة المدينة فيما لحق من الزمن حيث اتّخذ منها البيزنطيون مركزا عسكريا هامّا بعدما أصابها من التخريب على

---

[1]- J. Mesnage , Romanisation de l'Afrique. Paris : Gabriel Beauchesne editeur, 1913 , P 63

[2]- م.ب. شنيتي، الجزائر في ظلّ الاحتلال الروماني، ج 1، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية، 1999، ص 166.

[3] - J. Despois , le Hodna. P. 102

أيدي الوندال، فأقام بها الجيش البيزنطي، وحافظت المدينة على شهرتها بعد البيزنطيين، فأحيى الفاتحون المسلمون أمجاد طبنة ورفعوا من شأنها العمراني، حتى وصفها البكري في كتابه المسالك والممالك، يغدق عليها الأوصاف الحسنى مثل الحدائق الغنّاء والقصور المشيّدة وعيون الماء..

- مدينة بشيلقا أوزابي(zabi) :

عُرفت مدينة بشيلقا في القديم تحت اسم زابي، وتقع شمال غرب الحضنة، وهي تفصل بين مرتفعات بلّزمة، المعاضد، والسبخة. ولقد كانت إحدى المواقع العسكرية على الخط الدفاعي الثاني (الليمس) ببلاد الحضنة، كما كانت لها مكانة عمرانية واقتصادية.

وقد ورد اسمها على النقيشة اللاّتينية المكتشفة بعين المكان رقم 8805، [1] وورد اسمها أيضا في أطلس الجزائر الأثري تحت رقم 25/85، على أنّها تقع في الطريق الرابط بين مدينتين كبيرتين آنذاك هما: سطيف Sitifis، وسور الغزلان Auzia.[2]

ويبدوأن مدينة زابي قد قامت من نواة هي في الأصل مركز عسكري روماني، يرجع إلى عهد الإمبراطور تراجاس (98 – 117 م). وقد اختار مهندسو الجيش الروماني لهذا المركز موقعا استراتيجيا، يحتوي على آثار مدينة نوميدية قديمة. أمّا عن آثار المدينة الرومانية حسبما ورد في وصف الضابط الفرنسي " فرولد **Ferauld** " في منتصف القرن 19، فقد كانت مدينة كبيرة تتميّز بالشوارع المتقاطعة البادية للعيان، وهي في تصميمها على نمط المدن الرومانية التي تقوم على تقاطع شارع محوري يشق المدينة من الشرق إلى الغرب، أو ما

[1] - G.Wilmans, CIL, Vol. VIII 8805.
[2] - S. Gsell, AAA 25 /85.

يُعرف بالديكومانوس، وآخر من الشمال إلى الجنوب يسمّى بالكاردو. أما أطلالها فقد كانت تغطّي مساحة تسعين هكتار[1]، وهو رقم مبالغ فيه، حاول الجغرافي الفرنسي "جان. ديبوا' تصحيحه فيما بعد، عندما قدّر المساحة بخمسين هكتارا فقط[2] ، وهو تقدير مماثل لمساحة مدينة طبنة.

لقد تمّكن الأثريون الفرنسيون من رصد آثار المنشآت المائية بالمدينة، وكانت في نظرهم تتكوّن من سدود وقنوات، تزوّد المدينة والحقول المحيطة بها بما تحتاجه من مياه.

ومن هذه السدود: سدّ أقيم على واد قصاب (يعرف باسم واد المسيلة) وكان يبعد عن مدينة المسيلة بحوالي كيلومتر ونصف في منتصف القرن العشرين. وقد يكون اليوم داخل النسيج العمراني للمدينة. كما وُجدت بقايا خزّان بلغت سعته 45 متر مكعّب، تمّ نقل المياه منه عبر قناتين إحداهما موجّهة للشرب وأخرى إلى سقي الحقول والبساتين.

وتشير المصادر أن ملك الحضنة "ماستياس" أو خلفاءه من بعده، قد استرجعوا مدينة زابي من الحكام الوندال، وحافظت المدينة على حيويتها، حيث شارك ممثلون عنها في مجمع الأساقفة المسيحيين في قرطاجة عام 484 م. ولما استعاد البيزنطيون قبضتهم على الأجزاء الشمالية الشرقية من شمال إفريقيا، اصطدموا بملك الحضنة "أورتاياس "، كما ورد ذكره عند مؤرخ الجيش البيزنطي "بروكوب **Procope**"، وهو الأمر الذي تسبّب في نشوب حروب بين الطرفين

---

[1] - م.ب. شنيتي، المرجع السابق، ص.177.

[2]- J.Despois , le Hodna , P.P : 104 -105.

ألحقت أذى وخرابا بالمدينة[1]. وقد افتخر القائد البيزنطي سولومون " **Salomon**" باسترجاعها وإعادة بنائها، وقد خلّد ذلك في نقش لاتيني، عُثر عليه بمدينة المسيلة، يعود إلى عام 539 م. وتيمنا بالإمبراطور الروماني، أطلقوا على المدينة اسم " زابي جوستينيانا Zabi Justiana"، وجعلوا منها قلعة محصنة، وقد بلغ محيط صورها مائة وخمسين مترا طولا ومائة وعشرين مترا عرضا، في حين كان يبلغ خلال الفترة الرومانية أربعة آلافمتر، وهوما يدل على تراجع كبير لمساحة المدينة التي تعرّضت للتخريب على يد الوندال. وكان الهدف من إقامتها هو منع تسرّب البدو من ناحية غرب السبخة. وذلك لتميّزها بموقع استراتيجي هام يقف حائلا في الطريق القادم من بوسعادة، ويربط الحضنة بمنطقة برج بوعريريج.

أما الفاتحون المسلمون فقد دخلوها صلحا ولم يهدموها، وحافظ الولاة العرب على أسسها البيزنطية وأولوها عناية لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية. وما قيام مدينة المسيلة في القرن العاشر الميلادي على بعد 4 كيلومترات شمال غرب مدينة زابي إلا تأكيد على استراتيجية موقعها، وخصوبة أراضيها...

ب- العمران العسكري :

تكمن أهمية التحصينات العسكرية في إقليم الحضنة في كونها منطقةَ ربط وتداخل بين مقاطعة نوميديا ومقاطعة موريطانيا القيصرية. وأيضا نقطةَ عبور بين التل -الذي أطبقت عليه السلطة الرومانية قبضتها حفاظا على إمكانياتها الاقتصادية وحماية للمستوطنين الرّومان والمؤسّسات الرومانية-وبين الأطراف الشمالية للصحراء موطن الرعاة

[1] - Ch..Courtois , OP.cit , P.334

والمُبعدين عن أراضيهم والبدو الرّحل الذين كانوا يشكّلون الخطر الدائم للرومان...

ولهذه الأسباب كلّها قامت السلطة الرومانية بتشييد العديد من المراكز العمرانية لتضييق الخناق والسيطرة عليها حتّى يتسنّى لها مراقبتها. وقد ساهم خط الدفاع الثاني (الليمس) خاصّة في جزئه المدعّم بالتحصينات في غلق الممرات أمام الرّحل..

ولقد كُلّفت كتيبة أوغسطس الثالثة والفرق المساعدة لها بخدمة الأغراض التوسعية، فبنت العديد من المراكز العسكرية والحصون والقلاع، وربطتها ببعضها البعض بطرق استراتيجية ذات أهمّية عسكرية واقتصادية. مما أدّى إلى تشكيل حزام دفاعي يلخّص الأب "ميناج **Mesnage**" أهدافه فيما يلي: السيطرة على القبائل المجاورة والحدّ من التنقلات الموسمية للقبائل ومراقبة تحركاتها، وصدّ كل هجوم مرتقب على المزارع، وكذلك مراقبة تحرّكات سكان الجبال خشية تحالفهم مع الرّحل. ولا يُستبعد فرض نوع من المراقبة الجمركية على القوافل المارة خاصّة ابتداء من القرن الثالث للميلاد.[1]

ويُعرف هذا النوع من العمران بمصطلح خطّ دفاع أو الليمس Limes، وهو الذي يتشكلّ من خندق كبير تتخلّله أبراج مراقبة والعديد من الحصون والقلاع.

وتشير النصوص القديمة والشواهد الأثرية أن الرومان أقاموا خطّين دفاعيّين: الأوّل في عهد الأباطرة الأنطونيين في القرن الثاني للميلاد، وكان الهدف منه تطويق سلسلة الأطلس التلي والسهول المحاذية لها شمالا. وهذا الخط هو الذي كان يمرّ شمال جبال النمامشة، الأوراس والحضنة.

[1] -J. Mesnage , Op.cit , P. 75

أمّا خط الدفاع الثاني، الذي كان يهدف إلى تطويق مرتفعات التل الداخلية، فكان يمرّ فيما يخص منطقة الحضنة بخربة الزرقاء، مقرة، زابي، ترمونت ـ تاتيتلي وغريميدي(عين قريميد) وبالتالي نلاحظ أن هذا الخط يتماشى والمرتفعات الجبلية المحيطة بشط الحضنة من الشرق إلى الغرب. وقد عرف خط الدفاع الثاني أقصى حدوده الجنوبية في عهد الأباطرة السيفيريين في القرن الثالث ميلادي.

وتحيط بشط الحضنة ثلاثةُ مراكز عسكرية شرق وجنوب الإقليم في منطقة تداخل بين الليمس النوميدي والموريطاني.

- **معسكر أوزوم Castra Ausum** (سدوري حاليا) :وتكمن أهميته في أنّه يتربع على أحد المعابر الرئيسية بين الصحراء الشمالية والشرقية (حوض ملغيغ) وحوض الخضنة، من خلال فج عميق هو وادي سدوري فيما بين طولقة وواد الشعير. وقد أهّله موقعه ليحمي حوض الحضنة من الجنوب، كما أنّه أداة لدعم تحصينات واد الشعير منفذ البدو.

وتبيّن النقوش اللاتينية أنّه كان موجودا في أواسط القرن الثالث الميلادي[1]، وإن كان بعض المؤرّخين يصنّفونه ضمن إنشاءات الأباطرة الأنطونيين في القرن الثاني للميلاد[2] ، وتصل أبعاد هذا المعسكر 80م × 45 م، وهو مزوّد بأبراج عند الزوايا.

- معسكر القهرة :

ينفتح حوض الحضنة على مرتفعات الزاب وجبال أولاد نايل عبر منخفض واد الشعير الذي أقام عليه الرومان معسكر "القهرة"، و"عين الريش"، ويتصّل بحصن مسعد، وماسكا بخناق طرق رئيسية تتجه

[1] - G. Wilmans , CIL , vol. VIII 18016

[2]- M.Benabou, Op.cit, P.172.

إلى الحضنة. ويقوم معسكر القهرة على الضفة اليسرى لواد الشعير النابع من جبال أولاد نايل، وقد اتّضح من خلال النقوش اللاّتينية أنّه كان عامرا بجنود من كتيبة أوغسطس الثالثة أيام الإمبراطور" كراكلا " 211 -م217م.[1]

ولقد عثر بهذا الموقع على آثار ومنشآت ري هامة منها خزانات واسعة، ولقد وضع الرومان على الطريق الرابط بين مدوكال والقهرة أبراج حراسة عديدة لا تزيد المسافة الفاصلة بينها عن 2 كم، وهذا التعزيز في التحصينات يؤكّد أهمية إقليم الحضنة اقتصاديا وعسكريا.

-حصن مجدل :

يقع على بعد خمسين كيلومترا غرب مدينة بوسعادة، تمّ إنشاؤه في سنة 149 م، وهو يدخل ضمن تحصينات جبال أولاد نايل الشمالية الغربية، فهو يُشرف على ممرّ استراتيجي بين شط الحضنة والزحرز الشرقي، ويُشرف على بحيرة يتجمّع البدوفيها بمواشيهم في فصل الجفاف، وبالتالي يتمثّل دوره في مراقبة الطرق بين الحضنة، سيدي عيسى وسور الغزلان.[2]

أما **قلعة مسعد Castellum Dimmidi**: وقد أقيمت هذه القلعة بالقرب من وادي جدي جنوب غرب جبل بوكحيل سنة 198 م، في عهد الإمبراطور سبتيموس سيفروس، وتطلّ قلعة مسعد على أهم طريقين تمرّ بهما قوافل البدو، حيث يتّجه الأوّل شمال الموجارة والجلفة. ويتّجه الثاني من الأغواط نحو الحضنة مرورا بعين الريش والقهرة. وقد سدّت هذه القلعة بين السهول العليا وجنوب جبال

[1]- G.Wilmans , CIP vol VIII , 18028

[2] -Benabou , Op. cit. , P.144 p.17 2. & J. Despois , le Hodna , p. 100

العمور. وواصلت هذه القلعة وظيفتها الدفاعية لغاية سنة 238 م تاريخ حلّ كتيبة أوغسطس الثالثة، حيث تمّ إخلاؤها مثلما أخليت بقية القلاع.[1]

وقلعة مسعد في الاستراتيجية الرومانية من أهمّ قلاع مقاطعة نوميديا على الأطراف الشرقية للحضنة، إذ تعدّ أقصى موقع محصّن للمنظومة الدفاعية بالصحراء، وقد دعّمتها قلعة " تادميت " على الطريق الرابط بين الأغواط والهضاب العليا وقلعة " زنينة " غرب جبال أولاد نايل والمطّلة على الوادي الطويل.

والملاحظ أنّ هذه القلاع الثلاث قد أقيمت بالقرب من منابع مياه، مما يدلّ على رغبة السلطات الرومانية في التحكّم في المعابر بين المراعي الشتوية للبدو والضاربة في شمال الصحراء ومراعيهم الصيفية بالهضاب العليا والتل إلى جانب رغبتها في السيطرة على منابع المياه من أجل استغلالها في الرّي.

4- اقتصاد إقليم الحضنة :

لقد تميّز إقليم الحضنة بمناخ جاف تقلّ فيه الأمطار، ممّا تطلّب بذل جهود كبيرة في سبيل تعويض النقص بالتحكّم في مياه الأودية، خاصّة وأنّ السلطات الرومانية لم تكتف باستغلال الأراضي الخصبة فقط، بل كذلك أراضي البور المهملة. لذلك اهتمت السلطات الرومانية وبعدها البيزنطية بمنشآت التحكم في مصادر المياه لاستغلالها في المجالين الحضري والزراعي، وتشهد بقايا السدود والقنوات والخزّانات على ذلك.

ففي مدينة طبنة عثر على بقايا سدين أقيما على واد بريكة، وواد بيطام هما: سد فقوسط وسد رميلية، بلغ طول أحدهما خمسين مترا،

[1] - Benabou, Ibid , p.172.

وارتفاعه 3.20 م وهذه من السدود القليلة في المنطقة المصنوعة من الحجارة الصلبة. ومن هذه السدود مُدّت شبكة قنوات لتموين المدينة، والبساتين المحيطة بها، وكان يتراوح عرض بعض هذه القنوات بين 60 و90 سم، وهذا يعني أنّها كانت ذات منسوب مرتفع إلى حدّ ما، وقد عثر في الشمال الغربي من مدينة طبنة على بقايا خزّان كبير قدّر الجغرافي "ج. ديبوا "سعته بـ 87 مترا مكعّبا.[1]

بالإضافة إلى هذا فقد وُجدت آثار سدود صغيرة مثل سدّي واد برهوم وواد حنشن، ولا يستبعد أن القوم استخدموا مواد غير معمّرة مثل الخشب والطين في صنع بعض السدود التي لم تترك أثرا لها.

أمّا في مدينة بشيلقا (زابي)، فقد أقيم سدّ واد الذهب لتموين المدينة، ويبدو أن منسوب المياه كان قليلا، مما جعل الرومان يعتمدون على واد قصاب (واد المسيلة حاليا). وكان يبعد عن المدينة بأربع كيلومترات، حيث أقيم عليه سدّ، وتمّ نقل المياه منه عبر قناتين إحداهما للشرب والأخرى لسقاية الحقول، كما وجدت بالمدينة آثار خزّان بلغت سعته 45 مترا مكعّبا[2].

بالإضافة إلى سدود أخرى صغيرة قامت على واد اللحم، وواد الشلال...

أمّا عن الوضعية القانونية لأراضي الحضنة، فبعد أن انتزعتها السلطات الرومانية من أصحابها، أصبحت ملكا للإمبراطور، الذي قسّمها على الجند بعد قضاء 25 سنة خدمة في الجيش. وقد استعان

---

[1]- م.ب شننيتي، الجزائر في ظلّ الاحتلال الروماني. ج. 1، ص. 172

[2]-J.Despois,op.cit,p.105.

هؤلاء الملاك الجدد لخدمة أراضيهم بالعبيد، أو باليد الرخيصة المتمثلة في بعض" المور" الذين بقوا في محيط المدن والأرياف.

وقد استغّل المستوطنون أراضي الحضنة في زراعة أنواع مختلفة من المحاصيل، وتدلّ الكتابات بأنّ زراعة الزيتون والكروم التي سعت السلطات الرومانية إلى زراعتها في المناطق الداخلية من المغرب القديم، لم تكن لتأتي على حساب القمح، فهذا المحصول كان ضروريا لتموين روما. ولذلك توسّعت روما لغاية جنوب الحضنة من أجل المحصول الجديد" الزيتون"[1].

وتؤكّد هذه النصوص البقايا المادية في كلّ الإقليم لمطاحن الحبوب، ومعاصر الزيتون، كما لا نستبعد أن يكون الرومان في إقليم الحضنة، قد عرفوا زراعة الغلال والأشجار المثمرة وكذلك الخضار، وإن سكتت النصوص والنقوش عن ذكرها.

ويبدو أن المنطقة قد عرفت نشاطا صناعيا بسيطا يتماشى وموارد المنطقة. وقد تمثل في بعض الصناعات الغذائية، ومنها تصبير الزيتون واستخراج زيوته داخل معاصر وُجدت آثارُها في الإقليم. بالإضافة إلى ذاك، فان صناعة الفخّار كانت راقية في الإقليم، نظرا لتوفر مادّة الطين على حواف أوديته الكثيرة،.وكانت مدينة "زابي" تتوفر على ورشة لصناعة الفخّار دلّت عليها بقايا الشقق (القطع) وفرن الشوي، وقد كانت هذه المعامل متقاربة على أبعاد حوالي 25 م من بعضها البعض، وعلى استقامة واحدة.. [2]

بالإضافة إلى هذه الخيرات، لم يُفرّط المُحتل الروماني في استغلال كل موارد الإقليم بما فيها الطبيعية منها مثل استخراج مادة

---

[1]- M.Benabou ,OP.cit,p.p :180-181.

[2]- م ب شنيتي، التغيّرات الاجتماعية والاقتصادية، ص 178.

الملح من سبخة الحضنة التي عُرفت عندهم باسم " Salina thubonenses".

ولقد كان لشبكة الطرق التي أقامها الجيش الروماني العديد من الاستخدامات إذ كانت إحدى الوسائل التي اعتمدتها سلطات الاحتلال لفرض سيطرتها وتسهيل تنقّلات الجيش، وتمكينه من محاصرة القبائل. ولا تقل أهمّية الدور الذي قامت به في المجال الاقتصادي، حيث مكّنت المدن والأرياف من تصريف إنتاجها، وتيسير التجارة بين الصحراء والتل. بل نجد أن السلطات الرومانية قد استخدمت هذه الطرق في تحصيل (الاستحقاقات) الجمركية على القوافل.

ولنعط مثلا على هذه الطرق خاصّة تلك التي تركت آثارا واضحة. فقد تبيّن أن مدينة طبنة مثلا كانت تربطها عدّة طرق بالمناطق المجاورة والمراكز المهمة، منها طريق تربطها بمدينة نقاوس وأخرى تربطها بمدينة القنطرة، ومنها جزء يصلها بلامبيز (تازولت)، وطريق يخرج من طبنة باتجاه مدوكال.[1]

- الخاتمة:

وزبدة القول حول الأهمية التي تكتسيها منطقة الحضنة من الناحية الاستراتيجية، على مرّ العصور، يتّضح أن هذا الإقليم كان يُشكّل مجالا حيويا خاصّا ارتكز على مصدرين أساسين هما: التربة الخصبة والمياه، بالإضافة إلى العامل البشري الذي تراكمت لديه تقاليد المجتمع الحضري والريفي النشيط. ولقد حافظت السلطة الرومانية على هذه المؤسّسات المدنية بحفاظها على الأمن وتوفير وسائل الاتصال، وتشجيع الإنتاج الزراعي. وكان كلّ ذلك من أجل

[1]- Despois, Op.cit,P.104

توفير حاجيات المعمرين الرومان داخل مدنهم المحصّنة. وهو الأمر الذي يدلّ من جهة أخرى على وجود حركات تمرّد وعصيان بين الأهالي من المور والجيتول الرافضين للاحتلال الروماني.

لقد أسفر نشاط الرومان في هذا الإقليم، وعن غير قصد، على قاعدة عمرانية مرتكزة على نشاط اقتصادي مهم. ولعلّ ذلك ما أهّل الاقليم لأن يحظى في التاريخ الإسلامي بعد ذلك، بمكانة متميّزة، ويُعتقد بأن ما أصاب إقليم الحضنة فيما بعد، إنّما هو ناتج عن ضغط ظاهرة الرعي، على حساب النشاط الزراعي..